أدب الرفض في مقامات بديع الزمان الهمذاني[1]

حميد مخلف الهيتي
الجامعة المستنصرية

تقديم في اولية المقامات ونشأتها :ـ

حظي فن المقامات بقدر واسع من اهتمام الدارسين في الماضي والحاضر بوصفه فنا من الفنون النثرية التي بلغت من عناية قراء الادب والمشتغلين به حدا يتجاوز اكثر الفنون النثرية الشائعة في القرن الرابع الهجرى ، ويقترن نشوء هذا الفن ببديع الزمان الهمذاني لانه اول من الف فيه بالمعنى الاصطلاحي لكلمة ـ المقامة ـ [2] واليه نسب طرزها ورسومها ثم تلاه الحريرى (ابو محمد القاسم بن علي الحريرى) [3] الذى نسج على منواله فألف مقاماته المشهورة بنمط تجاوز فيه استاذه (البديع) في التصنيع اللفظي والسبك والموضوعية وانه اذ قاسمه الشهرة في هذا الميدان

---

(١) هو ابو الفضل احمد بن الحسين بن يحيى الملقب بديع الزمان صاحب المقامات المشهورة يراجع في ترجمته / نتيجة الدهر ـ للثعالبي ٢٤١/٤ ووفيات الاعيان لابن خلكان ٣٩/١ .

(٢) فنون في الادب العربي ـ المقامة ـ شوقي ضيف ص ٦ .
اهل الكدية ابطال المقامات في الادب العربي ـ عبدالنافع طلبات ـ ص ٤٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٤ .

عند المتأخرين فأن فضل السبق يبقى مقترنا بالرائد الاول الذى فتح مسالكه ووقع على ابكار صحائف ميلاده ويتحلق حول هذين العلمين على مد التاريخ عدد واسع من المتأخرين الذين الفوا مقامات بموضوعات مختلفة ابتداء بأبن نباتة السعدى وابن ناقيا وتوسطا بالرازى الحنفي وابن الصيقل الجزرى والسيوطي ، وانتهاء بالشيخ حسن العطار في مصر والآلوسي في العراق وفارس الشدياق واليازجي في الشام من اهل القرن الماضي .

لكن هؤلاء جميعا لايبلغون مبلغ الرجلين من حسن الاداء وجودة الانشاء ونفاق الشهرة ، ويكاد اليازجي يكون اكثر المتأخرين توفيقا في مسعاه [٤] .

ويقودنا هذا السياق الى الحديث عن الاوليات التي سبقت تأليف البديع لمقاماته والتي يراها البعض محاولات متقدمة تنفي عن البديع فضله المنسوب الى ابتداعه فن المقامات ويبني هؤلاء زعمهم على النص الذى اورده الحصرى عند الحديث عن بديع الزمان الهمذاني وفيه يقول :ـ

« لما رأى ـ اى الهمذاني ـ ابا بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى اغرب بأربعين حديثا وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وابداها للابصار والبصائر ، واهداها للافكار والضمائر ، في معارض عجمية ، والفاظ حوشية ، فجاء اكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الاسماع ، وتوسع فيها ، اذ صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة عارضها باربعمائة مقامة في الكدية [٥] تذوب ظرفا وتقطر حسنا وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين سمّى احدهما عيسى بن هشام ، والاخر ابا الفتح الاسكندرى،

---

(٤) المقامة ـ شوقي ضيف ـ ص ٨ وما بعدها .

(٥) الموجود من مقامات بديع الزمان احدى وخمسون مقامة .

وجعلهما يتهاديان الدر ويتنافثان السحر ، في معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريقة ويوقف منها على كل لطيفة ... الخ » [٦] .

وكان اكثر المتشبثين بهذا الرأى الدكتور زكي مبارك [٧] اذ اعتبر عثوره على هذا النص عند الحصرى مسوغا لنسبة نشوء المقامات الى ابن دريد الازدى المتوفي سنة ٣٢١ هـ واعتبر احاديثه الاربعين التي اوردها القالي في كتاب الامالي هي الاساس لنشأة فن المقامات في الادب العربي .

وفي مجال الرد على هذا الزعم نجد من المناسب ان نشير الى ان فن المقامات عند بديع الزمان الهمذاني لا يلتقى من حيث الشكل والمضمون باحاديث ابن دريد التي الفت في موضوعات مختلفة في سرد بعض القصص والحوادث عن الشمائل العربية والتواصي بين الشباب والكهول وملاحاة الازواج وتصوير شجعان العرب وفرسانهم واجوادهم وما شابه ذلك بأسلوب يقصر عن اسلوب البديع لغة وسبكا واقتدارا .

ويتمم ردنا على زعم الدكتور زكي مبارك ما نجده من التشابه بين احاديث ابن دريد وروايات ابي الفرج الاصفهاني في كتاب الاغاني وغيره من اصحاب المصنفات في كتب الادب ممن سبقوا في الرواية واسلوب السرد القصصي لان الاخذ بذلك الزعم يجعل هؤلاء وغيرهم روادا لفن المقامات قبل ابن دريد وبديع الزمان الهمذاني معا ، ويشارك الدكتور زكي مبارك في هذا الرأى الدكتور شوقي ضيف [٨] مضيفا الى ذلك اسبقية الجاحظ موضوعيا في الحديث عن الكدية والتسول مستفيدا مما وجده في كتاب (المحاسن والمساوىء) للبيهقي من قصص ونوادر المكدين المروية عن الجاحظ وما احتفل به كتاب البخلاء ايضا من تلك الموضوعات [٩] .

---

(٦) الحصرى – زهر الاداب ١/٣٠٧ .
(٧) زكي مبارك – النثر الفني ١ / ١٩٨–١٩٩ .
(٨) شوقي ضيف – ص ٢٠٤ .
(٩) البخلاء – نشرة دار الكاتب المصرى ٣٩ وما بعدها .

ان الاستنتاج الطبيعي الذى يمكن ان نحدده هو ان بديع الزمان الهمذاني بثقافته الواسعة قد اطلع على آثار المتقدمين جميعا وكون شخصيته الادبية من مصادرها ومن جدارته الخاصة المنسوبة الى نباهته النادرة ومواهبه الفذة وذهنه الوقاد ، ولايشكل هذا المقياس اى مبرر يسمح لنا بنفي ابتكاره لفن المقامات لان حدود الشكل والمضمون معا في مقامات البديع لا تجعل آثار ابن دريد او غيره انجازات فنية مجانسة تتقدم عصر البديع وتسبقه ويوثق هذا التصور ما اشار اليه الحريرى في مقدمة مقاماته [١٠] لانه توفر كما توفر استاذه بديع الزمان على مصادر الثقافة الادبية في التراث وكان احرى من غيره بتأشير منزلة احاديث ابن دريد او غيرها لو صح عنده تكامل الصيغ الفنية لادب المقامات عند احد قبل البديع .

دوافع اعتماد الرفض في سيرة بديع الزمان الهمذاني :ـ

تظافرت جملة عوامل في حياة الرجل ، حددت انتماءه الى جهة الرفض، والمعارضة للقيم الاجتماعية السائدة في عصره، وأول هذهالعوامل انه عربي الاروما من اسرة مضرية تغلبية كريمة [١١] . يعيش في زمن تنكر للعرب واعلى صوت العجم على مستوى الحكم المباشر للعراق والاقاليم الشرقية من المملكة مع ما تبع ذلك من تحكم الفكر الشعوبي وغلبة الانماط الفارسية وغيرها على القيم الاجتماعية في البلاد ، وقد خلق هذا الظرف وضعا مرفوضا من قبل العرب لانهم تحولوا مع مطلع القرن الرابع الهجرى الى المعسكر المتنحي عن الاحداث [١٢] واستأثر غيرهم بمراكز القيادة والتوجيه يتقاسمونه دوله حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ .

وثاني دوافع الرفض في سيرة الرجل، من ضيقه بطبيعة حياته في همذان

---

(١٠) مقامات الحريرى ـ المقدمة .
(١١) رسائل بديع الزمان (الرسالة الاولى) .
(١٢) المقصود به عصر التجزئة وظهور دويلات الاقاليم .

وهي من مدن فارس الجبلية لامور تتعلق ـ في الغالب ـ بشظف العيش وتعسر اسبابه وكان الطموح الى الشهرة والمال يدفعانه الى الرحلة الى حيث يجدهما وكان وراء هذا الطموح والده الذى اخـــذه بالتعليم والتثقيف ويسر له التخرج في اللغة والادب والدين على اشهر علماء بلدته واهمهم ابو الحسن بن فارس صاحب كتاب المجمل .

ويبدو سخطه على بلدته من قوله وهو يغادرها الى الرى مستظهرا بوزير البويهيين عليها (الصاحب بن عباد) .

همذان لي بلد اقـــول بفضله ... لكنه مـــن اقبـــح البلـــدان
صبيانه في القبح مثـل شيوخه ... وشيوخه في العقـــل كالصبيان

وثالث دوافع الرفض عنده ايضا ، ضيقه بالاماكن والبلاد الاخرى التي نزلها بعد فراقه (همذان) لانه لم يجد مكانه الطبيعي في مجتمـــع اختلت فيه المقاييس الاجتماعية فتلاحقت اسفاره يبحث في خلالها عـــن ظل يستهويه ويطفىء ظمأه ، وهكذا يبرح الرى الى جرجان ومنها الى نيسابور حيث يرتفق باعيانها من آل ميكال ويقوم مناظرته الشهيرة مـــع اديب هذه البلدة وعالمها المشهور (ابي بكر الخوارزمي) فيظهر عليـــه وتطير بعدها شهرته في الافاق اكثر من ذى قبل ثم تستهويه شهوة الرحلة من جديد فينفر من آل ميكال في نيسابور الى خراسان ومنها الى سجستان بأقصى الشرق من بلاد فارس ملتحقا بأميرها خلف بن احمد الذى اعجب به فخصه بست مقامات من مقاماته نوه فيها بعلمه وادبه وشخصيته الممتازة ولكن كبرياءه اوحت اليه بتشاغل الامير عنه وبعد تطواف هنا وهناك استقر به المقام في هراة من اعمال الدولة الغزونة فاصهر الى رجل اسمه الخشنامي وانجب اولادا واقتنى ضياعا وبعث الى ابيه واخوته يستدعيهم اليه بعد ان اقبلت عليه الدنيا وساغ له المقام [١٣] . ونحن اذ نشير الى هذه الرحلة

---

(١٣) المقامة ـ شوقي ضيف ـ ص .

القلقة في حياة الرجل نقرن بينها وبين ادبه الرافض في اكثر المقامات التي انشأها ونبرر رضاه عن (هراة) واستقراره فيها شكلا من اشكال اليأس بعد ان انفذ عمره القصير مسافرا نائيا عن الاهل والوطن مثقلا بالهموم والهموم التي عجلت بوفاته في الاربعين من عمره [١٤] حيث لم يطل مكثه في المدينة التي منحها ثمالة عمره راضيا فمنحة رحلة اللا عودة .

ورابع دوافع الرفض في حياة الهمذاني اطلاعه الواسع على احوال الناس ومشاكلهم في اكثر اجزاء الرقعة العربية الاسلامية ويردف هذا الاطلاع وقوعه تحت تأثير سلوك طوائف منهم ، ففي اثناء رحلته من جرجان الى نيسابور تعرض له لصوص في الطريق سلبوه كل ما يملك وفي ذلك يقول « وانا داخل نيسابور ولا حلية الا الجلدة ، ولا بردة الا القشرة [١٥] » ويتعرض لمثل ذلك بعد خروجه من نيسابور على يد لصوص من الاتراك قبل التجائه الى امير سجستان خلف بن احمد . وقد حفلت اسفاره المتعددة بالتعرف على سلوك الشطار والدجالين والمكدين ومظاهر التخلف الاجتماعي لذلك جعل ابطاله في المقامات من هذه الاصناف كما جعل البنية الاجتماعية لعصره موضوعا لادبه في المقامات .

وخامس هذه العوامل هو انتماؤه الاجتماعي ، الى طبقة العامة التي كانت تعاني ازمات حادة وخطيرة في رزقها واخلاقها وامنها لانها الطبقة المستهدفة بالاضرار من قبل السلطة الحاكمة التي تعصف بها صراعات العوائل والافراد فتحقق مزيدا من الفشل في الادارة واقامة العدل الاجتماعي وحفظ البلاد من الكوارث والخراب والامراض والاوبئة .

---

(١٤) اليتيمة ٤/٢٤٢ .

(١٥) نفس المصدر السابق .

الحالة الاجتماعية ـ الوضع الطبقي في القرن الرابع الهجرى :ـ

اتسم القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه بديع الزمان الهمذاني بالتفاوت الطبقي الحاد بين فئات المجتمع اما طبقة (الارستقراطيين) ويمثلها الخلفاء والوزراء وكبار التجار والاشراف فكانت على ـ قلتها ـ تملك كل شيء وتسمى مظاهر الترف الخيالي في حياتها ومظاهر عيشها تقابلها طبقة العامة التي تمثل كل الشعب ويدخل فيها الارقاء المتحررون وصغار الفلاحين والصناع والعلماء الذين لم يوفقوا في الوصول الى الخلفاء ووزرائهم اما الطبقة الوسطى [١٦] فلا تكاد تذكر ويدخل فيها المتوسطون من التجار والملاك .

ان هذا التفاوت الطبقي لايعلن عن صحة البنية الاجتماعية بل يسمى مرضا خطيرا منسوبا الى سوء توزيع الثروة القومية في مجتمع القرن الرابع الهجرى .

وان الرجوع الى كتب الحضارة الاسلامية توقف القارىء على مدى الشوط الذى بلغته الطبقة الاولى من مظاهر الثراء والنعمة والاسراف ، يقابلها حرمان شديد يصل الى حد فقدان القوت واللجوء الى الكدية والتسول والشطارة عند طبقة العامة الفقيرة . فهذه ام الخليفة المقتدر ، تحشو فم احد الشعراء الذين مدحوها درا باعه بعشرين الف دينار ، وهؤلاء خلفاء العصر ـ على ضعف مركزهم السياسي ـ يؤول اليهم خراج البلاد المفصولة والقريبة ، لينفقوه على نسائهم وجواريهم واناقة قصورهم ، فيملأ الخليفة المقتدر قصره باحد عشر خادما من خصيان الروم والسودان وينفق معز الدولة البويهي على بناء قصره في بغداد ثلاثة عشر مليون درهم، وينشىء عضد الدولة البويهي بستانا ، تبلغ النفقة عليه خمسة ملايين درهم

---

(١٦) ظهر الاسلام ١/٩٧ .

كما ينشىء الوزير ابن مقلة (وزير المقتدر والمتقي والراضي) بستانا كبيرا يحيطه بشبكة من الابريسم ويخصص اجنحة من قصره لتربية الحيوانات والطيور ، من جملة الاصناف يأنس بها ويكمل بها وبغيرها قيافة اناقة الحاكم وابهته وتدخل في ملكية الوزير ابي الحسن بن الفرات عشرة ملايين دينار ، ويؤول اليه من واردات ضياعه مليونا دينار في السنة، ينفقها لموائد طعامه المشهورة وترفه ، ويشترى ابو محمد المهلبي وزير البويهيين في بغداد في ثلاثة ايام وردا بثلاثة الاف دينار يطرحه في بركة عظيمة في داره لها فوارات لتنفضه على رؤوس الجالسين من ضيوف شرابه ويتظرف هذا الوزير بمأكله فلا يأكل بملعقة لقمتين ويقف على رأسه خادمان يتناوبان على تسليم وتسلم الملاعق حتى يفرغ من طعامه [١٧] وبلغ من ظرف الطبقة (الارستقراطية) انها وظفت في قصورها رجلا يسمى (الشرابي) اضافة الى رجل المطبخ مهمته العناية بالشراب والته وما يقدم معه من النقل والفاكهة والعطور ، كما رسموا اصولا لادب الشراب ، وتفننوا فيما يكتب من ابيات الشعر على قناني وكاسات الشراب وترشيح اعداد كبيرة من المغنيين والمغنيات لاشاعة جو الطرب على موائد الخمر ، وقد حوى كتاب (ادب النديم) لكشاجم اوصافا مسهبة من تلك الاصول والرسوم [١٨] .

وتفننت هذه الطبقة ـ ايضا ـ في الصناعات الجميلة من انواع الحلي والدقة في النسيج ونقش الثياب والتصوير واصناف الازياء والمأكول والمشروب وبلغوا من الاناقة في المعيشة ان جعلوا للظرف والظرفاء قواعد وقوانين من خرج عليها كان غير ظريف والفوا في ذلك الكتب (كالموشى

---

(١٧) ظهر الاسلام ـ احمد امين / ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ والحضارة الاسلامية ـ ادم متز ٢/٢٠٣ وما بعدها ـ واقسام ضائعه من كتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال الصابي جمع ميخائيل عواد ٣١ـ٣٢ .

(١٨) اليتيمة ٣/١٩٠ .

للوشاء) و (حدود الظرف) له ايضا و (ما يقدم من الاطعمة وما يؤخر) و (آداب الحمام) للرازى و (الزينة) لحنين بن اسحق و (الهدايا والسنة فيها) لابراهيم الحربي و (النبيذ وشربه في الولائم) لقسطا بن لوقا [١٩] وفي هذا الباب يقول الوشاء « اعلم ان من كمال ادب الادباء ، وحسن تظرف الظرفاء صبرهم على ما تولدت به المكارم واجتنابهم لخسيس المآثم وانهم لا يداخلون احدا في حديثه ، ولا يتطلعون على قارى في كتابه ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مسرسرة ولا يسألون عما ووري عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه ، الا ترى انهم لا يتبصقون ولا يتشاءبون ولا يستنثرون ولا يتجشأون » .

ان مظاهر الترف في حياة الخاصة واسعة وكثيرة وكان هدفنا من ذكر بعضها ما نراه لازما من الربط بينها وبين السياق الذى سيقودنا اليه البحث .

وكما احتفلت كتب الحضارة والتاريخ بالحديث عن مظاهر حياة الخاصة احتفلت ايضا بالحديث عن مظاهر حياة العامة وما تمثل فيها من بؤس وشقاء وفاقة ، وان الرجوع الى كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير ومروج الذهب للمسعودى وتجارب الامم لمسكويه والمنتظم لابن الجوزى عن الاحداث التي المت بالعامة في القرن الرابع الهجرى وما بعده تضع القارىء وجها لوجه امام لوحات بائسة ومريرة من واقع الطبقة الفقيرة ترادفت على صنعها مظاهر فساد المجتمع وكوارث الطبيعة والمجاعات ، والامراض والاوبئة ، تحت ظل حكم فاسد متخلف ، يهتم بترفه والتنافس على السلطة، اما البلاد فتحرثها نزعات تمرد الامراء في الاقاليم وثورات جند الديلم والبريدين والاتراك وشغب الشطار واللصوص وقد عبرت العامة عن

---

(١٩) الموشي للوشاء ص ١٩٢ .

هذا الواقع باساليب رافضة سلبية تدين العصر واهله ، فمنهم من اراق ماء الوجه وسلك في طريق الكدية والتسول وهم طبقة المكدين الساسانيين الذين جعلهم بديع الزمان ابطالا لمقاماته ومنهم من سلك في طريق الشعبذة والدجل يحتال بهما لاصطياد اللقمة التي يتبلغ بها ، ومنهم من باع الفضيلة فأكل بجسده وارخص عرضه ، عندما بلغ به الضعف منتهاه ومنهم من سلك في الشطارة واللصوصية ومنهم من سلك في الزهد والتصوف يحفظ بهما شرفه ودينه ورضى ان يموت جوعا ليحظى بثواب الاخرة [٢٠] .

اما العلماء والادباء الذين لم تصلهم حظوظهم بالخلفاء والوزراء فكانوا من هذه الطبقة يعانون معها ازمتهم في رزقهم ومعاشهم ويموتون بعقولهم فهذا ابو العباس الاصم من اكبر علماء خراسان ومحدثيها كان يعمل بالوراقة ويأكل من كسب يده وقد بلغ من احترام العامة له انه اذا مر بالطريق يقومون له ويحملونه الى المسجد [٢١] ، وهذا عبدالوهاب البغدادي المالكي صاحب المصنفات الرائعة في الفقه يبرح بغداد الى مصر بعد ان عزعليه الرغيف ويقول « ولو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم » ثم انشد [٢٢] :-

سلام على بغداد في كل موطن ... وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي باسرها ... ولم تكن الارزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه ... واخلاقه تنأى به وتخالف

---

(٢٠) يرجع الى كتب التاريخ المشار اليها للوقوف على احوال العامة ومتاعبها .
(٢١) ظهر الاسلام ١/١١٥ .
(٢٢) احمد امين ص ١١١ .

وهذا ابو حيان التوحيدى ، صاحب المنزلة الرفيعة في العلم والادب والفلسفة تضيق ذات يده فيأكل الخضرة في الصحراء ويشتد غيظه وغضبه لحالته الزرية فيحرق جميع كتبه لانها لم تكفل له سد الرمق من حاجته [٢٣] ويذكر ابو حيان التوحيدى في كتاب المقابسات قصة شيخ من أهل العلم ساءت حاله وضاق رزقه واشتد نفور الناس عنه فلجأ الى شنق نفسه بحبل مده الى سقف بيته بعد جزعه من الدهر وصروفه [٢٤] .

ويضيق بديع الزمان الهمذاني بسوء الحالة في هراة فيكتب الى احد ولاة الامر يعرض حالة اهل المدينة تحت وطأة الجوع والمرض ونقص القوت واضطرارهم الى اكل الميتة يتبلغون بها ومع ذلك يجور عليهم السلطان بالمطالبات فيشق عليهم ويلحق احياءهم باموالهم [٢٥] .

ويذكر مسكويه في احداث ٣٢٩ هـ وما بعدها ضر العامة بارتفاع الاسعار والتأذى بالمجاعات واضطرار الناس الى اكل الحشيش وجثث الموتى والجيف فلحقهم المرض ومات منهم خلق كثير ، وكان الواحد منهم يقف على قارعة الطريق ويصح : الجوع .. الجوع حتى يتلف ويموت ، وهاجر الكثيرون يطلبون القوت فماتوا في الطريق [٢٦] وشكلت قضية العبيد الهاربين ظاهرة اجتماعية جديدة نجمت عن مطالبة الامراء في الاقاليم بالقبض عليهم واعادتهم الى مواليهم فتمرد هؤلاء ونظموا انفسهم في مجموعات تحصن نفسها بالسلاح وتقاتل جيوش الحكومة وكانت تقطع طرق القوافل التجارية وتنهبها وتدخل المدن فتسرق الدور والدكاكين وقد دخل في هذه المجموعة بقايا الزُط والنَوَر والصعاليك وبعض الشطار [٢٧] .

---

(٢٣) ت احمد امين ص ١١١ .
(٢٤) طليمات ص ٥٣ .
(٢٥) طليمات ص ٦٠ .
(٢٦) مسكويه ١/٧٣-٧٤ .
(٢٧) طليمات ٦٣ وما بعدها .

العلاقة الموضوعية بين المقامات واحداث عصرها :

ان نصوص مقامات بديع الزمان الهمذاني ، تسمى العلاقة الموضوعية بينها وبين ظروف العصر الذى نشأت فيه وان هذه العلاقة تسمى معنى الرفض الذى بنينا على اساسه نتائج البحث ، اذ ليس لدينا اى شك ، بعد الذى قدمناه من شرح الحالة الاجتماعية والاقتصادية لعصر بديع الزمان الهمذاني ـ بأن القرن الرابع الهجرى قد حكم الاتجاهات الادبية في سلك احداثه ، وكان نصيب الادب الرافض ـ في نظرنا ـ وافرا وغنيا ، ويمثل ادب المقامات رافدا مهما من روافده ، ملك من الشعبية والرواج والتأثير حدودا واسعة •

وقد يدعي البعض ان القدماء والمحدثين لم يتجهوا في تفسير المقامات الى هذه الوجهة ـ الا قليلا منهم ممن اتموا بذكرها شروحهم لاحوال العامة واخلاقها وازمتها في رزقها بالقدر الذى يتيح لهم اقامة الشواهد على وجهات نظرهم في تقويم موضوعاتهم ، ونحن اذ نسلم بأن ادب المقامات لم يدرس ـ بوصفه علما على ادب الرفض في التراث ـ فأن هذا التسليم لايمنعنا من تناوله ـ الان ـ في سياق اعادة النظر في تقويم ادب التراث وتفسيره على حقيقته لابراز الجانب الموجب من آثارة •

يقودنا هذا التصور في دراسة مقامات بديع الزمان الهمذاني الى تأكيد حقيقة اغفلها الكثيرون من دارسي ادب التراث هي قلة اهتمامهم بجوانب ادب الرفض ـ عموما ـ في الشعر وفي النثر ويأتي اغفال دراسة المقامات بهذا الاتجاه سالكا مع المناهج التقليدية في دراسة الادب القديم دون النظر الى الربط الموضوعي بين مضمونها واحداث عصرها •

لقد اتصفت معظم الدراسات المقدمة في المقامات على اوليتها وتسمية مبتدعها وعلاقتها بالفنون الادبية السائدة في عصرها او قبله وفي تصنيفها فنيا مع الادب القصصي والمسرحي او قريبا منه وقد اجمع اغلبهم على

جعل الغرض من انشائها اشاعة روح الفكاهة والنكتة بين صفوف الطلبة قبل القاء الدرس عليهم حتى يفتح الاستاذ قلوبهم ونفوسهم لتقبل المحاضرة واحتوائها او بعد المحاضرة لنفي الضجر والتعب عنهم ، وقد اعتبروا قيام بديع الزمان الهمذاني بقراءة مقاماته على طلبته منسوبا لهذا الفرض التعليمي ومقصورا عليه ثم قلده بطريقته الحريرى ومن جاء بعدهما من اعلام كتاب المقامات واكثر الذين اكدوا هذا الجانب من المحدثين الدكتور شوقي ضيف [1] ولكنه تحفظ عن اعتبار المقامة قصة او اقصوصة [2] بل اعتبرها حديثا ادبيا بليغا فيه ظاهر من القصة فقط .

وفي مجال تفسيرنا للفرض من المقامات لا نختلف مع الدكتور شوقي ضيف او مع غيره من استخدام المقامة في الاغراض التعليمية ولكننا لانكتفي بجعل هذه الاغراض اهدافا نهائية لها لان اهدافها الحقيقية تتجاوز هذه المرحلة لتقترن بطموح العامة الى نفي الضيق الذى تعانيه وترفع ـ بأسلوبها الخاص صوتا معارضا في وجه النظام السائد وطريقة معالجته احوال الناس الذين احترقوا في ظله .

واذا كانت طريقة الهمذاني غير صريحة في الرفض ، فلأن الرجل قد اعتمد اسلوب العرض الفكه الساخر حتى لا يقع تحت طائلة عقاب السلطان ، وانه اذ يفعل ذلك يحقق غرضين اثنين يقصد اليهما قصدا ، اولهما التقرب الى ذوى الاقدار من رجال السلطة ، يأخذ منهم ويحتمي بقوتهم وتكون عروضه الادبية بالنسبة لهؤلاء نصوصا جميلة تمتلىء ظرفا وفكاهة يرتاحون لها ويأنسون بنوادرها ، وثانيهما التوجه الى العامة التي

---

(١) الدكتور شوقي ضيف ـ المقامة ـ المقدمة .

(٢) ممن اعتبر المقامة من ادب القصة ـ مارون عبود في كتابه عن (بديع الزمان الهمذاني) ص ٣٧ .

يعيش بين ظهرانيها يعلن بين صفوفها ـ برمزية ذكية ـ شكواها والمها وحيلتها في طلب القوت واسبابه •

واننا اذ نؤكد هدف الرفض في ادب المقامات ، نتلمس وسائلنا من مصادر متعددة ، اولها ذكاء الرجل وفطنته وعمق تناوله لاحداث عصره بشكل لايسمح بأعتبار مقاماته مؤلفة لاغراض هامشية ساذجه ، وثانيهما اختيار المؤلف ابا الفتح الاسكندرى بطلا لمقاماته وعيسى بن هشام رواية لها ، وكلاهما من صميم طبقة العامة المسحوقة يتقنان الكدية ويمتهنانها ويسلكان في سبيلها بالحيلة والدجل والشعبذة والشطارة وتنتهي رحلتهما في كل مقامة الى هدف الحصول على الرزق بهذه الطريقة ما دام طلبه قد عز بالطرق المشروعة • وثالث المصادر التي تتجه بالمقامات الى الرفض هو الوسط الذى تتحرك فيه احداثها والابطال الثانويون الذين يتعامل معهم ابو الفتح الاسكندرى وهم في الغالب من الفقراء الذين امعن الزمن بامتهانهم واذلالهم ، يروج بينهم المرض والجهل والتخلف والاستغلال والشذوذ •

وبعد ذلك كله هل يصح ان نعتبر ادب المقامات نصوصا ادبية ترويحية وحسب ؟ وهل يمكن ان نعتبر ولادة ابطالها صدفة جاد بها خيال المؤلف معزولة عن موضوعها الاساسي ؟ وهل من العدل ان نعتبر الوسط الذى عبرت عنه المقامات او تعاملت معه تواترت احداثه بعفوية غير موضوعية ؟ للجواب على ذلك نقول بثقة : ان بديع الزمان الهمذاني قد دون بأمانة وذكاء وثيقة تاريخية هامة عبر فيها عن رفضه ورفض العامة للجور الذى استهدفهم بشراسة وقسوة •

بقي علينا ان نشير الى شواهد الرفض في نصوص المقامات نفسها وهي كثيرة ـ بلا شك ـ بل تكاد جميعها تكون كذلك لولا قلة منها لاتتجاوز ست مقامات الفت في موضوعات علمية او شخصية وحتى هذه القلة لم تعدم

لمحات رافضة وردت في سياقها اقتضتها منهجية المقامة عند بديع الزمان .

ان العموم الذى نوهت به عن اتجاه الرفض في نصوص المقامات يتيح للقراء العودة اليها من جديد وتناولها بالدراسة والتحليل واستلهام الموضوع الذى بنيت عليه كل مقامة من مقامات بديع الزمان الهمذاني وقد جعلت الهدف من هذه الدراسة لفت النظر الى ضرورة اعادة تقويم ادب المقامات تقويما موضوعيا يأتلف مع الحوافز الحقيقية التي الهمت المؤلف موضوعاته وحركته باتجاهها .

وفي خلال الاستنتاج الذى انتهينا اليه يكون ذكر النصوص الطويلة من مقامات البديع تضخيم كمي للبحث الذى نقوده لامبرر له وقد يكون مفيدا ان نشير الى الخواتيم الشعرية لبعض المقامات لانها تمثل نهاية الرحلة في المقامة وتوحي بذكاء الى الغرض منها على النحو الاتي :ـ

أ ـ جاء في نهاية المقامة (القريضية) البيتان التاليان يبرر فيهما بطل المقامة ابو الفتح الاسكندرى حيلة لطلب الرزق :

ويحك هذا الزمـان زور فلا يغـرنك الغـرور
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور

ب ـ وجاء في خاتمة المقامة (الازادية) نفس الغرض ايضا :ـ

فقضي العمـر تشبيها على الناس وتمـويها
ارى الايـام لا تبقـي على حـال فاحكـيها
فيـوما شـرها فـيّ ويـوما شـرتي فيهـا

جـ ـ جاء في اثناء المقامة (الاسدية) هذه الابيات اعتمدها البطل وسيلة للكدية والتسـول :ـ

رحم الله مـن حشـا في جرابـي مكارمـه

رحم الله من رنـــا لســـعيد وفاطمـــة [٣]
انـه خـــادم لكـــم وهـــي لاشـــك خادمه

د ـ وجاء في نهاية المقامة (البغدادية) هذان البيتان برر بهمـــا ابو الفتح الاسكندرى استغفاله لاعرابي اكل من ماله :ـ

اعمل لرزقك كل آلـه لا تقعدن بكـــل حاله
وانهض بكـل عظيمـة فالمرء يعجـز لا محالـه

في ختام هذه الدراسة المتواضعة امل ان اكون وفقت الى رســـم الخطوط العريضة لمجالات الرفض في ادب المقامات واترك لغيرى ســـعة الدخول اليها لتفحص نماذجها وقرنها بزمنها الذى تنكر لاهله فعبروا عنه بما قدروا عليه وهو ـ لعمرى ـ كثير •

(٣) طفلان يكدى بهما ابو الفتح الاسكندرى •

مصادر ومراجع البحث

١ ـ يتيمة الدهر ـ الثعالبي ـ طبعة الصاوى ـ القاهرة ١٩٣٤ ٠
٢ ـ مقامات بديع الزمان الهمذاني ـ شرح محمد محي الدين عبدالحميد ـ ط ٢ ـ مطبعة المدني ١٩٦٢ ٠
٣ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ مطبعة السعادة ١٩٣٤ ٠
٤ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ ط ١ ـ المطبعة المنيرية ١٣٤٨ هـ٠
٥ ـ مقامات الحريرى ـ الحريرى ـ طبعة منشورات المكتبة التجارية ـ القاهـــرة ٠
٦ ـ تجارب الامم ـ مسكويه ـ طبعة شركة التمدن الصناعية ١٩٢٦ ـ القاهرة ٠
٧ ـ اهل الكدية ابطال المقامات في الادب العربي ـ عبدالنافع طليمات ـ دار ابن الوليد ـ حمص ١٩٥٧ ٠
٨ ـ فنون الادب العربي ـ المقامة ـ شوقي ضيف ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٤ ٠
٩ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ـ شوقي ضيف ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٥ ٠
١٠ ـ بديع الزمان الهمذاني ـ مارون عبود ـ طبعة بيروت ٠
١١ ـ زهر الاداب ـ الحصرى ـ طبعة المطبعة الرحمانية ـ القاهرة ٠
١٢ ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجرى ـ زكي مبارك ـ طبعة القاهرة ٠
١٣ ـ ظهر الاسلام ـ احمد امين ـ نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢ ٠
١٤ ـ اقسام ضائعة من كتاب (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) ـ هلال الصابـي ـ جمع ميخائيل عواد ٠
١٥ ـ الحضارة الاسلامية ـ ادم متـــز ـ ترجمة ابي ريده ـ ١٩٥٧ ـ القاهرة ٠
١٦ ـ المحاسن والمساوىء ـ البيهقي ـ مطبعة السعادة ـ ١٩٠٦ ٠
١٧ ـ البخلاء ـ الجاحظ ـ طبعة دار الكاتب المصرى ـ القاهرة ٠
١٨ ـ رسائل بديع الزمان الهمذاني ـ طبع بيروت ـ ١٩٢١ ٠